

قصة الأرض الفلسطينية

الأستاذ محمد محمد حسن نزال

نزال الاسم، أقدم اسم أطلق على أرض فلسطين هو «أرض كنعان» أو «كنعان» وتوجد أول إشارة إلى هذه التسمية في حفريات «تل العمارنة»^(١) التي يرجع عصرها إلى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد. والاسم الذي تذكره هذه الحفريات هو، «كينا هي» أو «كينا هنا» وأصله كنعان. وأشارت هذه الحفريات بهذا الاسم إلى البلاد الواقعة غربي نهر الأردن بما فيها سورية. وكنعان، إحدى القبائل الأمورية^(٢) التي جاءت إلى فلسطين من الجزيرة العربية. منذ أقدم العصور وكانت أقدم الهجرات التي نعرفها عن يقين حوالي سنة (٢٥٠٠) قبل الميلاد، والتي اتجهت من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي. وعلى هذا فإن العرب يوجدون في فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة.^(٣) ومن الفروع الكنعانية المعروفة «اليوسيون» الذين كانت عاصمة بلادهم القدس القديمة المعروفة باسم «أوروساليم» أما اسم «بالستين» الذين عربيه العرب فنطقوه فلسطين. فهو مشتق من اسم الشعب الذي كان يسكن السهول الساحلية من أرض كنعان وكان الإغريق هم الذين بدؤوا في إطلاق هذا الاسم على الجزء الداخلي من البلاد بعد أن كان مخصصاً للسهول الساحلية^(٤). ولأول مرة يتخذ هذا الاسم الصفة الرسمية حين صكَّ الامبراطور فباسبان، هذا الاسم على النقود التي أصدرها عقب قهر اليهود سنة ٧٠ م.^(٥) وكان الرومان قد قسموا فلسطين في آخر عهدهم إلى ثلاثة أقسام،

- (١) تل العمارنة، موضع في مصر على النيل (محافظة أسيوط) تقوم عليه نقاش عاصمة الفرعون أختاتون نحو ١٢٦٦ قبل الميلاد، اكتشفت فيه المراسلات التي تبادلها الفرعون العمارنة وملوك الشرق.
- (٢) ومن القبائل الأمورية التي عاشت غربي نهر الأردن، الحثيون، والحيويون، واليبوسيون، والعموريون.
- (٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تأليف فيليب حتي، ترجمة جورج حداد.
- (٤) تاريخ فلسطين القديم - لعبد الحكيم ذا النون ص ٤٦.
- (٥) تاريخ فلسطين القديم، لتقتر الإسلام خان ص ١٨. وه الموسوعة الفلسطينية مادة فلسطين واسم PLST. وتحوي هذه الكلمة (المصرية الهيروغليفية) على الشعب الذي أطلق فلسطين اسمه «بالست» المعاصر الرئيس لكلمة «فلسطين» بدون النون، التي قد تكون للنسبة، أو للجمع.

١ - فلسطين الأولى ، ويُطلق على منطقة وسط البلاد .

٢ - فلسطين الثانية ، ويُطلق على الجليل .

٣ - فلسطين الثالثة ، ويُطلق على الأجزاء الباقية في جنوب البلاد .^(٦)

أما العرب ، فقد أطلقوا اسم فلسطين ، على هذه الديار منذ العصر الجاهلي ولكنهم ينسبون إلى الاسم بدون ياء وثون ، فيقولون 'فلسطين' . قال الأعشى ،

مَتَى تُسَقِّ من أنيابها بعد هَجَمَةٍ من الليل شرباً حين مالت طلاتها

تَحَلَّه فلسطيناً إذا ذُفَّت طَعْمُه على رِيذات التي حُمِسَتْ لثَاقَتها
وقال ابن هرمة ، وهو عياشي :

كَأَنَّ قَاهَا لَنْ تُؤْتِيَهُ بَعْدَ غَمُوبِ الرُّقَادِ وَالْعَلَلِ
كَأَنَّ فِلِسْطِيَّةً مُعْتَقَةً شَيَّبَتْ بِجَاءِ مِنْ مُزْنَةِ السَّيْلِ^(٧)

... وقد ورد اسم فلسطين في العهد الذي أعطاه عمر بن الخطاب إلى أهل اللد ..^(٨)
ولكن اسم فلسطين لم يكن يشمل فلسطين المعروفة ، فقد كان جند الأردن يحوي عدداً من مدن فلسطين الحالية ، مثل عكا . وطبرية التي كانت عاصمة جند الأردن ، ويُضم إلى جند فلسطين من مدن شرقي الأردن ، عَمَّان (انظر معجم البلدان لياقوت) .

وتكلم اللغويون في إعرابها ، فمنهم من يعربها إعراب المفرد ، ويجعلها بمنزلة مالا ينصرف . ومنهم من يجعل إعرابها بالخرف الذي قبل التون ، فيقول ، هذه فلسطين ورأيت فلسطين ، ومررت بفلسطين .

أما في العهد التركي ، فلم تكن فلسطين في مصطلحاتهم السياسية غير وحدتين إداريتين هما ، بيروت ، والقدس .^(٩)

وحيث إن « فلسطين » هو الاسم المعترف به في الأدب المسيحي للبلاد ، فقد دخل هذا الاسم ، قبل الاحتلال الإنجليزي ونُفذ ، إلى المعاهدات والنصوص السياسية . فاستعمل في

(٦) « بلادنا فلسطين » الجزء الأول ص ٦٩٢ . لمصطفى مراد الدبّاع ، و « الموسوعة الفلسطينية » مادة فلسطين .

(٧) معجم البلدان - لياقوت الحموي (فلسطين) .

(٨) تاريخ الطبري ج ٢ / ٦٠٩ - دار المعارف .

(٩) بعد تنظيم الولايات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أصبحت فلسطين إدارياً قسمين ، الأول ، متصرفية القدس ، وتشمل النصف الجنوبي من البلاد ، والثاني يتكون من شمال البلاد ويقع في متصرفية نابلس وعكا ، وهاتان المتصرفيتان كانتا تتبعان ولاية بيروت ، « الموسوعة الفلسطينية » .

تصريح بلفور. وفي اتفاقية السلام مع تركيا (لوزان ٢٤/٧/١٩٢٣م) كما حواه صك الانتداب.

أهل الأرض وعصّارها

تقع فلسطين في الرّيب من قارة آسيا، وتتوسط مفارق الطرق بين آسيا وأفريقيا وأوروبا. وتصل ما بين البحر الأبيض المتوسط (الموصل بالمحيط الأطلسي) والبحر الأحمر، وجزء من المحيط الهندي. وتبلغ مساحتها حوالي ٢٧.٠٠٩ كيل مربع. ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٤٣٠ كيلاً. وأما عرضها فيتراوح في الشمال بين ٥١ كيلاً و ٧٠ كيلاً، وفي الوسط يتراوح العرض بين ٧٢ - ٩٥ كيلاً. ويتسع في الجنوب حتى يصل إلى نحو ١١٧ كيلاً.

ويشهد تاريخ فلسطين أن وضعها الجغرافي وصلتها القوة بالأراضي المجاورة حدّاً على مرّ الزمن تطورها ومصيرها، وكانت أحوالها تتأثر دائماً بأوضاع الجزيرة العربية ومصر، وسورية والعراق.

ففي أواخر الألف الرابع قبل الميلاد تعرضت فلسطين لموجة هجرة عربية كبيرة هي الموجة المعروفة باسم «الأمورية الكنعانية» فنزل هؤلاء الأموريون داخل بلاد الشام وجنوبها الشرقي، واستوطن الكنعانيون ساحلها وجنوبها الغربي المسمى فلسطين.. والمعروف أن الكنعانيين والفينيقيين شعب واحد، نسباً ولغةً وديناً وحضارة. انقسم إلى قسمين، سكن الأول فلسطين، وسكن الثاني الساحل الشامي من مصب نهر العاصي إلى جنوبي الكرمل^(١٠).. ويُرجّح أن الكنعانيين كانوا يقطنون سواحل الخليج العربي قبل نزوحهم إلى الساحل السوري (شواطي، سورية وفلسطين ولبنان) ونسبة لهؤلاء سميت فلسطين أرض كنعان، وكان أقدم اسم أطلق على البلاد.

وبقيت للكنعانيين السيادة ما يقرب من ألفين وخمسمائة سنة، أي، من ٢٥٠٠ قبل الميلاد، إلى نحو (١٠٠٠) قبل الميلاد، حين تمكن اليهود من إقامة مملكتهم، وقد اعترف الأعداء، والأعداء في ذلك الزمان وما تلت من الأزمنة أن اسم هذه البلاد هو «كنعان» وأن شعبها كنعاني. وقد جاء هذا الاعتراف في التوراة حيث تسمّى القبائل التي عاشت غربي الأردن، الكنعانيين وتطلق على تلك البلاد اسم «أرض كنعان». (انظر: الإصحاح ١٢ - يشوع).

(١٠) نظر «قلب لبنان» لأمين الريحاني ص ٤٢٢ و «بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ ج ١/ ٢٨٧ - ٢٩٠.

والثابت أن هؤلاء الكتنانيين إنما هم من عرب الجزيرة العربية. مما يسمى «العرب البائدة»^(١١) الذين تحدث القرآن الكريم عنهم. في قصتي النبي هود - بالأحقاف - والنبي صالح، في وادي القرى (العلات) حيث آثارهم تدل على حضارتهم.

وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب، أسماء الأنبياء العرب، وهم محمد وإسماعيل وشعيب وصالح. وهود، صلوات الله عليهم. ثم قال: وهذا يدل على أن لسان العرب قديم. لأن النبي هوداً من أقدم الأنبياء بعد نوح، وإدريس عليهما السلام، وأرسله الله إلى قومه في الأحقاف، جنوب الجزيرة العربية، ولا يرسل النبي إلى قومه إلا بلسانهم.

● ولم تكن هجرة الكتنانيين إلى موطنهم الجديد، هجرة مؤقتة، وإنما كانت هجرة الثبات والعمران، وبناء الممالك، وقد أثبت التاريخ نسبة عدد من المدن القديمة إليهم، فهم أول من بنوا القدس، وكانت تسمى «يوس» نسبة إلى «اليبوسيين» من الكتنانيين، وسموها أيضاً «أوروساليم» ومدينة «حبرون أو أربع» وهي مدينة الخليل، ومدينة «يرحو» (أريحا) وبيت شان، وهي مدينة بيسان، وغزة، وداجون وهي بيت دجن وشكيم، وهي نابلس وعكو، وهي عكا^(١٢).

ومع ما مر على البلاد، بعد استقرار الكتنانيين بها، من غزو على يد الفراعنة والآشوريين، واليونان والموسويين، فإن سكان كتعان لم يهجروها، وإذا استولى الفارزون على مملكة من ممالكهم، تبقى لهم ممالك أخرى، وقد اعترفت التوراة بذلك بعد دخول الموسويين إلى أرض كتعان، حيث يقول الإصحاح الثالث عشر: «وقد بقيت أراضٍ لامتلاك كثيرة جداً، ومن الأراضي الباقية، كل بقاع الفلسطينيين، وكل أرض الجشوريين، من الشيحور، (الفرع الشرقي من النيل) الجاري في مصر إلى تخم عقرون»^(١٣) (مدينة جنوب شرق يافا) شمالاً وهي للكتنانيين....»

واستمرت الهجرات العربية إلى أرض كتعان في جميع القرون التالية، فكانت رافداً جديداً لعروبة الأرض، وتجديداً مستمراً للدماء العربية. وقد ذكر القرآن قصة النبي شعيب حيث أرسله الله إلى (مدين) واختلفوا في مكان هؤلاء القوم، فقالوا: إن مدين على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك، وقال بعضهم: إنها في صحراء النقب^(١٤) وقال قوم إنها في

(١١) انظر تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٧، وتاريخ ابن خلدون ج ١ ص ١٠٠ - ١١٠.

(١٢) بلادنا فلسطين - لمصطفى الدباغ ج ١ ص ٤٢٠.

(١٣) كانت تقوم على البقعة المعروفة باسم «خربة المفتح» على مسيرة ستة أميال للجنوب الشرقي من قرية عاقر، من أعمال الرملة.

(١٤) انظر «معجم ما استعجم» للبكري، و«التبوة والأنبياء»، لمحمد علي الصابوني ص ٢٦١.

شرقي الأردن، عند مدينة (معان) الحالية. وقيل: مدين: هي قرية (كفرمندة) من أعمال طبرية.. وقد كان قوم مدين من العرب، لأن النبي شعبياً، عربي... ومهما كان موقعهم، فإن في وجودهم في تلك المناطق دليل على تجدد الهجرات نحو تلك الديار، ودليل على الصفة العربية التي ترقد مناطق بلاد الشام.

● ومن العرب البائدة غير الكنعانيين، قبائل، طسم، وجديس، وعاد، وثمود وعمليق، وعبد ضخم، وجرم.. وغيرها... وقد ذكرت كتب التاريخ أن لهذه القبائل علاقة بأرض كنعان، حيث نزلت فلسطين في عهدها العربي الكنعاني فذكر القلقشندي في «نهاية الأرب» أن جماعة من «جديس وطسم» نزلت بلاد مدين، وغور البلاونة (في غور الأردن) والوهادنة (في محافظة إربد، والغور، وكورة جبل جرش قرب القور).^(١٥)

ويذكر المؤرخون أن «عاداً» أقدم القبائل العربية البائدة، ويضربون بهم المثل في القدم، فكانوا ينسبون الشيء الذي يريدون أن يبالغوا في قدمه إلى «عاد» فيقولون إنه «عادي»، ويثر عادي.. موغلة في القدم كأنها منسوبة إلى قوم عاد. ويقول المؤرخون: إن عاداً هو أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده، وفي عهد ولده «شداد» استولى على الشام ومنها فلسطين (انظر: تاريخ اليعقوبي ١٢/٢، وتاريخ ابن خلدون ٢/٢٥).

ويقول التويري في «نهاية الأرب» إن اليهود لما دخلوا أريحا بقيادة «يوشع بن نون» في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان بها بقية من عاد.

● وقبيلة ثمود، قبيلة عربية بائدة، كانت تقيم في بلاد الحجر من وادي القرى (العلا) ويقولون إنه كان بين صالح الثمودي، وهو العادي نحو مائة سنة (مروج الذهب)^(١٦) وقد أرسل الله إليهم النبي صالحاً قال تعالى {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم ساعة العذاب بما كانوا يكسبون، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون}.. وقد مضى النبي صالح عليه السلام، ومن آمنوا معه إلى الشام، حاملين ما قدروا عليه من أموالهم فنزلوا بأرض فلسطين، في موضع مدينة الرملة، وبقي في فلسطين إلى أن مات. (انظر: ابن الأثير ٩٢/١، ونهاية الأرب ٨٥/١٢، ومروج الذهب ١٧/٢) ولذلك تتعدد المقامات باسمه في بلاد فلسطين.^(١٧)

(١٥) نهاية الأرب في معرفة ألسان العرب من ١٩.

(١٦) ج ٢ / ١٥.

(١٧) انظر «القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين» ج ١ / ٢٢، ٢١.

وذكرت «ثمود» في جملة الشعوب التي تغلب عليها في البادية العربية سرجون الثاني الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد، وأنزل جماعة منهم في السامرة من فلسطين، كما أجلى بعض بطونهم إلى غزة. (انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٢٤٩/١).

والمعالمقة هم والكنعانيون شعب واحد، كان منزل جدهم عمليق جوار مكة ثم انتشرت قبيلته في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وغيرها.

وسلائل عمليق التي استقرت في فلسطين نزلت جهات الخليل وجنوبي البلاد وعرفوا بجبابرة الشام لكبر أجسامهم وطولهم وضخامة أبنيتهم، وهم الذين بنوا «بيت جبرين» من أعمال الخليل، لأن معنى هذا الاسم «بيت الأقوياء الجبابرة»^(١٨). والمعالمقة الكنعانيون، أول شعب عربي حارب اليهود في غزوتهم فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد^(١٩).

● وقيلة مدين، قبيلة عربية، لأن نبيهم عربي، كانت مساكنهم في ديار بئر السبع وسيناء، وفي المنطقة التي تمتد من العقبة ومعان إلى مصب وادي الحمض، عند مدينة الوجه، بالسعودية^(٢٠) وقال البكري في «معجم ما استعجم» مدين: بلد بالشام معروف، بلقاء غزة. وكان أهل مدين أصحاب تجارة وتاجروا مع مصر ولبنان وفلسطين، وفي نحو القرن السابع عشر قبل الميلاد سحبت إحدى قوافلهم التجارية يوسف بن يعقوب من البشر التي ألقي بها إخوته. وقد تمكن المدينيون من توسيع رقعة أرضهم فنزلت جماعة منهم مرج بني عامر في فلسطين، وابتدأوا يضايقون اليهود ويذلونهم وفي «سفر القضاة» أن هؤلاء العرب أذلوا الإسرائيليين، وأن الرب دفع الإسرائيليين إلى أيدي المدينيين سبع سنوات ولكنهم عادوا لقطاعهم في جنوب فلسطين واستقروا فيه قروناً عديدة. لأن المؤرخ المقرئ يذكر في خطه (ج ٢٢١/١) أنه كان بأرض مدين مدن كثيرة قد باد أهلها، وخرت وبقي منها (عام ٨٢٥هـ) نحو الأربعين مازالت باقية منها في ناحية فلسطين عشر مدن. ومن هذه المدن الخلسة، والعوجاء، وبئر السبع، وسبيطة...

ومن أشهر الممالك العربية التي قامت في فلسطين، الأنباط العرب الذين استوطنوا^(٢١)

(١٨) انظر «معجم بلدان فلسطين» من تصنيف / محمد محمد حسن شراب.

(١٩) «النوبة والأنبياء» للشيخ محمد الصابوني ص ١٨٤.

(٢٠) انظر «معجم البلدان» لياقوت الحموي و «معجم معالم الحجاز» لعاتق اليلادي.

(٢١) خطط الشام، محمد كرد علي ج ٢١/١.

فلسطين حوالي سنة (٣٠٠) قبل الميلاد، وشملت مملكتهم النبطية أراضي فلسطين الجنوبية والشرقية، وشرقي الأردن وجزءاً من سورية، وكانت عاصمتهم البتراء. وأصل الأنباط عربي ثابت يجمع عليه الباحثون بدليل اللغة العربية التي تظهر في كتاباتهم بالأرامية وأسماء أعلامهم (الحارث وعبادة، ومالك) وأسماء ألهمتهم، (ذو الشرى، واللات، والعزى ومناة وهبل. ويرى بعض المؤرخين أنهم قدموا من جنوب الجزيرة العربية واستقروا زمناً بالحجاز، ويرى آخرون أنهم حجازيون أصلاً حلوا محل الأيدوميين في موطنهم وأخذوا اللغة الأرامية عنهم.

أما ما يرد في المصادر العربية الإسلامية من كلمة «الأنباط، والنبط، والنبيط» فلا يدل على هؤلاء الأنباط، بل يدل على السكان المحليين العاملين في الزراعة ولاسيما فلاحي سواد العراق.

● أما هجرة العرب العاربة، وعرب الحجاز، إلى فلسطين، قبل الإسلام فإنها لا تحتاج إلى إثبات، ومن أشهر القبائل التي سكنت بلاد الشام ومنها فلسطين قبيلة عاملة من كندة، نسبة إلى الحادث بن عدّي، الذي سمي باسم أمه القضاعية من سكان بادية الشام (ابن خلدون ٥٣٦/٢) ويذكر المؤرخون أن بطوناً عديدة من عاملة كانت خاضعة لزنوبيا ملكة تدمر (٢٦٧ - ٢٧٢م) مما يدل على عمق جذور هذه القبيلة في الديار الشامية. (انظر تاريخ العرب لجواد علي ٢٧٨/٤). وإلى هذه القبيلة ينسب جبل «عاملة» وبلاد «عاملة» بين لبنان وفلسطين، وبلاد جبل عامل، تقع بين نهر الأولي الذي يصب في البحر شمالي صيدا، ووادي القرن الذي ينتهي شمال قرية الزيب في فلسطين وبين البحر المتوسط في الغرب وبحيرة الحولة وأطرافها من الشرق، وهو قسمان شماله من أعمال لبنان، وجنوبه في القسم المغتصب في فلسطين، ومن بقاعه صفد، وجبل الجرمق، والبصة.

ومن القبائل التي سكنت بلاد الشام قديماً، قبيلة، جذام. القبيلة العربية القحطانية، وكانت منازلهم ما بين عمان، ومعان، ومدين، وغزة.

وذكرت تراجم الصحابة، زنباع بن روح الصحابي، في عداد أهل فلسطين، وقد ولد على الرسول عليه السلام، في المدينة وأعلن إسلامه، وله حجة ورواية. (الإصابة لابن حجر) .. وقد انتشرت عائلة زنباع في فلسطين، وشاع ذكر اسم ابنته من بعده روح بن زنباع، وتسمى أهل فلسطين به، بإضافة ياء النسب إليه فقالوا: روحي. حسب الطريقة التركية في الأسماء، مثلما قالوا: فخري، وشكري، وصبحي. ومن مشاهير الفلسطينيين الذين تسموا به: روحي الخالدي، نائب بيت المقدس، ونائب رئيس مجلس النواب العثماني وروحي الخطيب، أمين القدس.

● ومن القبائل العربية القحطانية التي سكنت فلسطين قبل الإسلام، قبيلة حتم، وقيل إن الذي استخرج يوسف بن يعقوب من الجب عام ١٦٧٨ قبل الميلاد هي القافلة اللخمية التجارية بقيادة مالك بن زغر اللخمي^(٢٣). وفي السنة التاسعة من الهجرة وفد على رسول الله وقد من (غارة) من حتم على رأسه تميم الداري، ومعه نعيم ابن أوس، وبرير بن هاني، وأعلنوا إسلامهم، وطالبوا من رسول الله أن يقطعهم القطاع الصغير الذي يضم (خيزون) الحليل، بما فيها قلعها وحرماها وبيت إبراهيم، وبيت عينون فلبي رسول الله عليهم وكانوا يقيمون بجوار الحليل، وقد روى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن تميم الداري، حديث الجاسة، وفيه أسئلة عن ماء، طبرية، ونخل بيسان وما، زغر، (صحيح مسلم).. وأخيراً، لا يجهل أحد الفساسة، وانتشارهم في بلاد الشام، وقيام ملكهم فيه... الخ «انظر خطط الشام ج ١ لمحمد كرد علي».

● ولم استقص كل القبائل التي تنابت على سكنى فلسطين، وإنما ذكرت أمثلة استدل بها على أن الروايف العربية لفلسطين لم تنقطع منذ سكنها الكنعانيون العرب، وأن عرب فلسطين اليوم لم يكونوا من سلالة العرب الفاتحين بعد الإسلام وإنما كانت لهم جذورهم القديمة في البلاد، قبل أن تطأها قدم إنسان عرف تاريخه على وجه الأرض، وما كان العرب الفاتحون إلا ناشري دعوة بين إخوانهم ومحربين دياراً اقتصبها الرومان، تحشياً مع تعاليم القرآن الكريم، وسيرة النبي العربي الكريم، بأن تكون الدعوة أولاً إلى العرب، ثم إلى غيرهم من الأمم الأخرى لأن الدعوة نزلت بلسان عربي، وأولى الناس بمعرفة أولاهم العرب.. وقد ظهر هذا جلياً، في حكمة الإسراء والمعراج، وفي سيرة الرسول عليه السلام فيما بعد، فقد أراد الله أن تكون رحلة الرسول إلى السماء، على مرحلتين، الأولى الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، ثم العروج إلى السماء من بيت المقدس، فلماذا كان الإسراء، أولاً إلى القدس ولم يكن المعراج مباشرة من مكة إلى السماء؟ أجاب العلماء عن ذلك، بأن من أسرار الإسراء، أن يجمع الرسول تلك الليلة بين القبيلتين، أو لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء، قبله فحصل له الرحيل إليه ليجمع بين أشقات الفضائل، وقيل، لأنه محل الحشر، انظر «(الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء، لجلال الدين السيوطي و«تفسير سورة الإسراء» في تفسير ابن كثير).

(١) جمهرة أنساب العرب، لابن حزم.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ترجمة تميم الداري، و«الفضاء الساري في معرفة خير تميم الداري» للمقريزي.

وقال سيد قطب رحمه الله في تفسيره «في ظلال القرآن» ج ١٥/١٢ «والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنها أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتغال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً...».

ومن حكمة الإسراء أيضاً، الربط بين الأرضين والشعبيين، وللدلالة على أن سكان القدس وفلسطين ممن يجب أن تبلفهم دعوة الإسلام بعد تبليغها لعرب الجزيرة. وقد تدرجت سيرة الرسول في نشر الدعوة نحو هذه الحكمة فبعد أن كادت الدعوة أن تعم بلاد الجزيرة العربية، بدأ يتجه نحو الشمال وكانت البداية بفتح خيبر، لتأمين طريق الدعوة إلى أهل الشمال، ثم جاءت تبوك، ودومة الجندل، وموطة، وكانت الأخيرة متوغلة في بلاد الشام ثم أخيراً جيش أسامة الذي جاس خلال الديار، وتوغل في عدد من مناطق فلسطين.

● إنَّ هناك مغالطة تاريخية انهمك المؤرخون الصليبيون واليهود في ترويجها خصوصاً فيما يتعلق، بالعراق وسورية وفلسطين ولبنان، وهي أن العرب الذين يسكنون هذه البلاد اليوم، إنما هم أخلاف المسلمين الذين خرجوا من الجزيرة العربية عقب المد الإسلامي، ولقي هذا البهتان اهتماماً خاصاً لدى مؤرخي اليهود الذين أرادوا أن يثبتوا أن عرب اليوم ليسوا إلا سكاناً جديداً حلوا محلَّ اليهود والروم في تلك البلاد، وسدقها أو كاد، صفار المتعلمين من أبناء العرب، مع أن المصادر الرسمية اليهودية تكذب هذه المزاعم، حيث تقول دائرة المعارف اليهودية العامة: «فلسطين أصبحت بلاداً عربية ليس فقط بسبب الفتح المحمدي، ولكن لأنَّ العرب كانوا قد أتوا إلى البلاد مهاجرين منذ قرون مضت، فمنهم البدو ومنهم جاليات المحاربين المجريين والتجار، وكانت مسيحيتهم بالأصح هروطوقية (غير مستقيمة) غير عميقة بصورة كافية ولذلك استبدلوها بسهولة بالإسلام»^(٢٥).

فالحقيقة الواضحة هي أن سكان فلسطين، هم العرب منذ أقدم عصور التاريخ كما أوضحت ذلك من قبل بالرجوع إلى سجل التاريخ الصحيح، وتاريخ الهجرات العربية. وقد رأينا أنَّ الأكثرية من سكان فلسطين هم العرب سواء كان ذلك من الكتنانيين في بداية عمران الأرض، أو كان باسم لفظ العرب فيما يلي من القرون، بل إنَّ العرب حكموا البلاد بصفتهم واسمهم العربي قبل الإسلام بشمانيّة قرون، ومنذ ذلك الوقت ظلوا عاملاً أساسياً في

(٢٥) عن «تاريخ فلسطين القديم، لظفر الإسلام خان» ص ١٥٢.

السياسات الفلسطينية في صورة الأنياب^(٢٦). والأيدوميين والتدمريين والفساسة. ولا شك أن قادمين جدداً من شبه الجزيرة وضعوا رجالهم في فلسطين بعد الفتح الإسلامي. شأنهم في ذلك شأن أي شعب فاتح. ولكن لا يمكن إنكار أن الهجرة العربية إلى فلسطين كانت قبل ظهور الإسلام بكثير. وإن ازدادت بعده...

وكون العرب أقدم من الإسرائيليين في فلسطين، ليست كلمة نقولها نحن العرب فقط. وإنما هي شهادة الدارسين من غير العرب، يقول جفريز في كتابه «فلسطين إليكم الحقيقة» [ترجمة أحمد خليل الحاج] القاهرة سنة ١٩٧١م: «ولكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك - إبان الفتح الإسلامي - انصهروا مع سكانها الأقدمين، لدرجة أن عرب اليوم في فلسطين، لا يمثلون مجرد جنس فاتح. ولكنهم سلائل تلك الشعوب التي عاشت فيها قبل الإسرائيليين. إننا نسميهم عرباً، ولكنك لا بد وأن تجد في خضم بحر جنسهم العظيم الذي يمتد من الاسكندرونة إلى مكة وما بعدها، كثيراً من الأعراق وأن جذورهم في هذه الأرض هي تلك الجذور التي نشأ منها التاريخ في حد ذاته... ويقول، وما من شك أنها مفاجأة كبيرة بالنسبة للقارئ المتوسط أن يعلم أن العرب أسبق من اليهود في سورية وأن الجهل بهذه الحقيقة - الجهل الشائع لدينا - هو في الواقع سند تعتمد عليه الدعاية الصهيونية السياسية»^(٢٧).

وينقل الأستاذ جفريز في كتابه السابق رأي خبراء الأجناس فيقول: «إن رأي الفقهاء الأكفاء من أهل الخبرة والمعرفة أن فلاحي فلسطين الناطقين بالعربية، أخلاف للقبائل الوثنية التي كانت تعيش هناك قبل الغزو الإسرائيلي - أيام النبي موسى - وظلت أقدامهم ثابتة في التربة منذ ذلك التاريخ، وتوالت عليهم موجات الفتح المتعاقبة التي طغت على البلاد دون أن تحطمهم»^(٢٨). وينقل عن الأستاذ ريتشارد تمبل قوله: «إن فلاحي فلسطين هم الأخلاف الأصلاء للكنعانيين الذين ورد ذكرهم في التوراة. إنهم أخلاف اليبوسيين والعموريين، ولا بد أنه كانت لهم شخصيتهم الخاصة الأصيلة، وكان لهم شكلهم الثابت من أشكال المجتمع، وقد يكون نظامهم قد تهدم بفعل الغزو اليهودي، لكنهم كما سيذكر قارئو التوراة، لم يخضعوا أبداً، للنفوذ اليهودي، بل إنهم على العكس من ذلك، قد جعلوا القومية اليهودية في كثير من الأحيان تحس بقوة أثرهم إحساساً ينذر بالكارثة، ولا يكونون قد تحولوا إلى المسيحية بأعداد كبيرة في أيامها الأولى. إنهم بالاحتصار قد أقاموا على عبادتهم القديمة للأوثان حتى جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) إنهم يفلحون الأرض كفلاحين ملاك من الدرجة الأولى.

(٢٦) خطط الشام، محمد كرد علي ج ١، و «دائرة المعارف الإسلامية» المجلد الثالث ٨٠٢.

(٢٧) «فلسطين إليكم الحقيقة» ص ٣٥.

(٢٨) فلسطين إليكم الحقيقة ص ٣٦ - ٣٧.

ويخضعون مباشرة للموظف الرسمي التركي المكلف بجباية ضريبة الأملاك. (٢٩)

ويقول المؤرخ الأمريكي. تشارلز ماثيوز. «وحيث إن بعض الناس المخلصين يؤمنون أحياناً ويعبرون عن فكرة تقول: إن العرب مجرد طفيليين في فلسطين. وأنه ينبغي لهم أن يفسحوا المجال لعودة اليهود أصحاب الحق الملوك التاريخيين لأرض التوراة. فيمكن أن يقال كلمة أخرى عن الأصول السلالية للبلاد: إن الواقع البسيط هو أن الشعب العربي في فلسطين ليس سليل أولئك القادمين الجدد الذين اقتحموا مع الفتح الإسلامي العربي في القرن السابع. إن أغلبية السكان المحليين سواء العرب المسيحيين أو المسلمين. هي من جنس مختلط ترجع صلتها بالأرض بعيداً إلى تاريخ قديم جداً. وإن هناك نزعة طبيعية لتبسيط التاريخ وذلك بالفكرة القائلة. بأن جميع مستعمي الأقطار المفتوحة جاءوا من الخارج وانتحلوا السلطة. وإنه لتصور لا يمكن لمعظم السكان المسلمين أن يفهموه وهو القول بأن أسلافهم كانوا من الجنس الفاتح. ولا شك في أن عدداً كبيراً من العرب الحقيقيين من عرب الجزيرة العربية قد استوطنوا في الأرض الجديدة. وتوجد شهادات على مثل هذا الاستيطان في التواريخ العامة والمحلية للشعوب الإسلامية صاحبة العقلية التاريخية. ولكن الفاتحين والمستوطنين الذين جاءوا وراء الانتصارات العسكرية والإدارة السياسية. لم يكونوا إلا قلة صغيرة بالمقارنة مع جماهير السكان التاريخيين المتصلين في الوجود. وقد قبلت الأكتية اسم العرب تدريجياً مع قبول الجميع للدين الجديد واللغة العربية - ولذلك فإن عرب فلسطين اليوم هم الشعب التاريخي للأرض. وكانت البلاد دائماً بلادهم» [انظر تاريخ فلسطين القديم - لظفر الإسلام خان] (٣٠).

● وبنخص ما سبق في البحث بالقول: لم تطل حياة عنصر في الشام كما طالت حياة العرب. فمنهم من كان أكثر من أربعة آلاف سنة. وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لساناً ومزجاً. وفي تاريخ فلسطين أن العرب دخلوها قبل الإسلام بقرونه. لأن ابن سرجون غزا فلسطين سنة ٢٨٠ قبل الميلاد وصادف في سيناء دولة عربية. ولأن سرجون الثاني غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السامرة وأخضع قبائلهم ومنها حمود ومدين. ولما جاء الاسكندر إلى غزة وحاصرها كانت حاميتها من العرب فقوامته أشد مقاومة. ولأن أحد تلامذة المسيح بشر ملعات منها اللغة العربية ومنها أن «تيسطس» لما جاء لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية . قال محمد كرد علي: والغالب أن العرب فيهم خاصية التمثيل. إذ جاؤوا شعباً قريو

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) تاريخ فلسطين القديم - لظفر الإسلام خان . ص ١٥٨

صاحبيهم وأذخروا عليه لثقتهم. وهم لمادة العظمى التي مازالت تفيض على الشام. وأهل الوبر والمدر أو اليدوية والحضر منهم. [خطط لشام ج ١ / ٢٠]

- ضيوف وغرباء -

ومضى على وجود الكنعانيين العرب أكثر من ألفي عام في فلسطين بنوا في خلالها الممالك. وزرعوا الأرض. حيسا حل إبراهيم الخليل عليه السلام شيقا على بلاد كنعان حوالي سنة ١٨٠٥ قبل الميلاد.

وقد ولد إبراهيم عليه السلام في بابل من أرض الكلدانيين. ثم انتقل مع أسرته إلى حرّن - في بلاد ما بين النهرين - حيث عاش فترة من الزمن قبل أن يرحل مع ابن أخيه لوط وأهله إلى أرض كنعان. عن طريق تدمر. هدمشق حتى وصل إلى «شكيم» نابلس. وبيت إيل [منطقة رام الله] وأورشليم حيث استقبله كاهنها الأعظم. ملكي صادق الكنعاني. ثم ظل يتنقل بين فلسطين ومصر والحدار. واتحدوا مقراً في (حبرون) الخليل وفي نحو ١٧٩٤ قبل الميلاد رزق إبراهيم بولده إسماعيل. جد العرب العدنانية. وهو الذي وصل بين فلسطين وبين النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم. الذي ينسب للعدنانيين. والمسلمين. إذ قام مع أبيه ببناء الكعبة المشرفة ولهذا فإن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم يمتك فلسطين بأربعة حقوق:

الأول، لأنها سقط رأس أبيه إسماعيل. ومدفن جده إبراهيم عليه السلام
الثاني لأن الله أرسده نبياً إلى العرب أولاً. ولعالم كافة ثوب. وسكان فلسطين من العرب المقصودين بالدعوة. وقد أدن للعرب المسلمين - العدنانيين والقططانيين - أن يوصلوا الدعوة إلى إخوانهم في بلاد الشام.

الثالث، أنه - صلى الله عليه وسلم - حاتم لأثنياء. ورسالته تشمل على كافة الرسلات قبله. وإعمار المسجد الأقصى من حق الرسالة الإسلامية التي تعترف بالأثنياء كنهم.

الرابع، إن أول من بنى بيت المقدس. وقدمه. وأقام فيه المعابد. ^(٢١) هم الكنعانيون العرب. وذلك قبل ملك داود وسليمان - عليهما السلام - بأكثر من ألفي سنة تقريباً.

(٢١) وذلك بعد بساتنة الأول. وقد ثبت أن الباء الأول للمسجد الأقصى كان على يد آدم عليه السلام للحدث الذي رواه البحري وأحمد بن أبي ذر قال: قلت لرسول الله: أي المساجد وضع في الأرض أول. قال: المسجد الحرام. قال: ثبت. ثم أي قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة. وقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام لم يكن النبي الأول للكعبة. وإنما رفعها عن قواعده آدم. وكذلك كل من يسب إليه بناء المسجد الأقصى. إنما يكون قد رفعه على قواعد آدم عليه السلام - انظر فتح الباري - لابن حجر ٦٠ / ٩.

● وبعد مولد إسماعيل - عليه السلام - بنحو أربع عشرة سنة رزق إبراهيم من زوجته الأولى - سارة - بولد الثاني إسحق. والد يعقوب الذي كتب بإسرائيل، والذي أطلق اسمه على جميع ذرية يعقوب.. ونزح يعقوب وأولاده إلى مصر نحو عام ١٦٥٦ قبل الميلاد، ابتداءً من يوسف عليه السلام الذي تعرف قصته، ثم تبعه أهله، الذين لم يبلغوا إلا بضع عشرات من الأفراد حيث كانت إقامة إبراهيم وذريته، من يوم قدومه إلى فلسطين حتى لنزوح آل يعقوب إلى مصر، حوالي مائة وخمسين سنة، وإذا حسبنا المدة من يوم مولد إسحق بن إبراهيم، لقد لا تتجاوز المائة السنة - فأين هذه المدة القصيرة من آلاف السنين عاشها الكنعانيون في فلسطين؟

● وتكاثرت عائلة يعقوب (إسرائيل) بعد نزوحهم إلى مصر، وأضحى الإسرائيليون يتوالى الأهم جزءاً من سكان مصر، غير أن الفراعنة استعبدوهم وأخذوا يشغلونهم في الأعمال الشاقة، فاجتمعت أفكار زعمائهم للنزوح عن مصر وقد تم لهم ذلك في عهد موسى عليه السلام، بعد مضي حوالي أربع مائة سنة على وجودهم في مصر.. فبصر موسى وقومه البالغ عددهم حوالي (٥٥٥٠) نسمة، بحيرة المنزلة في طريقهم إلى سيناء «انظر كتاب مصر القديمة، لحسن سليم ج ١٣٢/٧» ومن ثم إلى فلسطين، وكان ذلك نحو ١٢٢٧ قبل الميلاد وأرسل موسى عليه السلام رجالاً ليتجسسوا ولما عادوا، قالوا: إن الأرض تفيض لبناً وصلاً، غير أنه ليس لنا طاقة على حرب من منها، فبين اليهود عن التقدم. وقص علينا القرآن قصتهم مع موسى فقال تعالى {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين} قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجال من الذين يخافون أنهم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأمن على القوم الفاسقين}. [سورة المائدة ٢١ - ٢٦]. وفي نهاية الأربعين سنة حاول موسى وقومه أن يدخلوا فلسطين من طرفها الجنوبي عن طريق بئر السبع، ولكنهم عجزوا عن ذلك

لما وجدوه من المقاومة الشديدة. وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين، فسار قومه بقيادة «يوشع بن نون» باتجاه شرقي الأردن، ومن هناك عبروا نهر الأردن وعسكروا أمام أريحا، وكان عددهم لا يتجاوز ستة أو سبعة آلاف نسمة^(٢١) وحاصروا المدينة وفتحوها عوة. فقتلوا سكانها وحرقوا بيوتها ونهبوا نقاتها.

ولعلوا مثل ذلك في مدن (لنتة - تل الصافي وحيث - تل الدوير وعجلون - تل الحسي وخبرون - الخليل ودير - بيت مرس) وبذلك تم يوشع الاستيلاء على قسم من جوبي فلسطين، وبقيت ممالك كثيرة ومناطق واسعة لم يدخلها، وهي «يسان» و«تمتك» و«مجدو» و«رأس العين» وعكا وسهولها، والططورة وقسم كبير من شمالي فلسطين، يوس - القدس» فضلاً عن الساحل من الكرمل إلى سيبا، الذي بقي بأيدي الفلسطينيين^(٢٢)

(٢١) بعد أن حملون في مقدمته أقوال المؤرخين في إحصاء عدد الجيوش القديمة، وبخاصة جيوش بني إسرائيل في زمن موسى وبعد. فيقول «وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه. بعد أن أجاز من يطيق حمل سلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها. فكانوا ستامة ألف أو يربدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام وتساعدهما لفل هذا العدد من الجيوش، وأن لكل منكم من الممالك حصه من الحماية تسع لها وتقوم بوظائفها وتعين عما فوقها. تشهد بذلك العوائد المعروفة والآخرون المألوفة. ثم إن مثل هذه الجيوش البانعة إلى مثل هذا العدد يعد أن يقع بينها زحف أو قتال لصيق مساحة الأرض عنها ويعدّها إذ استطعت على مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أربع. فكيف يقتل هذين الفريقان أو تكون غلبة أحد الصعين. وشي من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر. وخاصر يشهد لذلك، فلأصفي أشبه بالآتي من هذا. ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير. يشهد بذلك ما كان من غلب بختنصر لهم واستيلائه على أمهم وتحرب بيت المقدس، وهو من بعض عمال محكمة فارس. وكانت ممالكهم بالعراقيين وخراسان وما وراء النهر ومع ذلك لم تتبع جيوش الفرس مثل هذا العدد ولا قريباً منه. وأعظم ما كانت جيوشهم بالقادسية مائة وعشرون ألفاً ومن عائشة والزهرى أن جموع رستم التي زحف بها لسمد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفاً، كلهم متبوع. وأهف فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لانتزع لحاق ملكهم، لأن العمالات والمساند في الدول على نسبة الحماية والتبيل والقائمين بها، والقوم هم تسع ممالكهم بنى غير أجرا من الأردن وفلسطين من الشام وأهف فأندي بين موسى وإسرائيل (يعقوب) إنما هو أربعة آلاف. فبزه موسى بن عمران بن يصهر بن قاهر بن لاري بن يعقوب، ولدتا بينهما على ما نقله المؤرخون قالوا دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً. وكان مقامهم بمصر بنى أن خرجوا مع موسى إلى التيه مائتين وعشرين سنة. تتداولهم ملوك قبط من نمرسة ويعد أن يتشعب السبل في أربعة أجيال بنى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده، فبعد أيضاً. إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر ألفاً ولا يتشعب السبل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه والذي ثبت في الإسرائيليات أن جود سليمان كانت اثني عشر ألفاً، وأن حيونه كانت ألفاً وأربعمائة فارس وفي أيام سليمان كان عمود دولتهم والتساع ممالكهم (١ هـ) من ٩ من المقدمة.]

(٢٢) انظر «تاريخ بني إسرائيل من أساطيرهم لحمد عزة دروزة ص ١١١ - وما بعدها

ولما مات يوشع تولى أمر اليهود كبار شيوخهم. وقد عرف عهدهم بعهد القصة» ويصف غوستاف لوبون هذا العصر بقوله كان بنو إسرائيل أقل من أمة. كانوا أخلاقاً من عصابات جامحة. كانوا مجموعة غير مسجمة من قبائل صغيرة أفارقة بدوية تقوم حياتها على العزو والتهاب القرى الصغيرة حيث تقضي عيشاً رغيداً دفعة واحدة في بضعة أيام. فردا مضت هذه الأيام القليلة عادت حياة التيه والبؤس (انظر: اليهود في تاريخ الحضارات ص ٣٢). واستمر عهد القصة ٢٥٦ سنة. ثم طلب اليهود من بني لهم أن يعين لهم ملك. يقاتلون معه أعداءهم. فجعل عليهم نبيهم طالوت ملكاً من سنة ١٠١٢ - ١٠٠٤ قبل الميلاد. وبعد وفاته تولى داود عليه السلام حوالي ١٠٠٤ - ٩٦٢ قبل الميلاد. وكانت عاصمته الأولى الخليل ثم فتح القدس التي كانت بيد اليبوسيين الكنعانيين حتى ذلك العهد. وقد بلغت مملكة ليهود ذروتها في عهد داود. ولكنها لم تشمل فلسطين كلها. ثم تولى سليمان بن داود في نحو ٩٦٢ - ٩٢٢ قبل الميلاد. وبني في عهده المعبد أو هيكل سليمان. وبعد وفاته انقسمت المملكة إلى قسمين مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب. ونشبت بينهما حروب ونزاعات ثم كانت نهاية مملكة إسرائيل على يد الآشوريين حوالي سنة ٧٢٢ قبل الميلاد وأما مملكة يهوذا فدامت بعد الأولى نحو ١٢٦ سنة. وكانت نهايتها على يد بختنصر الكلداني الذي استولى على القدس وأحرق الهيكل عام ٥٨٦ قبل الميلاد وسعى عدداً كبيراً منهم (انظر: بلادنا فلسطين ج ١/ ٥٧٢). وتفسير سورة الإسراء. في تفسير الطبري. وابن كثير.

● وهكذا نجد من العرض السابق أن بني إسرائيل حنوا أول الأمر ضيقاً على بلاد كنعان ومكثوا حوالي مائة سنة خرجوا منها إلى مصر وعددهم حوالي سبعين نفساً. ومكثوا هناك قرناً تكاثروا فيها. وحل بهم الدل على يد لعناته. فأراد موسى عليه السلام أن ينقذهم مما هم فيه. ويتبعوا تعاليم السماء. ولكنهم خالفوا أمر ربه. ورأوا أن مدة ملك بني إسرائيل وزمن قوته لم يتجاوز زمن داود وسليمان عيهما السلام. وله تكن لهما السلطة على فلسطين كلها...

● وهناك شبه ترد على ذهن القارئ العجل. عندما يقرأ كتاب الله القرآن الكريم في بعض الآيات.

١ - منها قوله تعالى {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين} (البقرة ٤٧) و ١٢٢ وقوله تعالى {وهو فصلكم على العالمين} (الأعراف ١٤٠) والجواب عن ذلك من وجوه:

١ - لقد ذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم في الماضي ، لأنهم كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يؤنبهم على أنهم يكفرون النعمة ولا يشرفون بالجميل ، تقولك لأحدهم ، جعلتك أفضل الناس وتخونني .

ب - قال الشيخ الصابوني في صفوة التفسير {وأني فضلتكم} أي ، فضت أبايكم . {على العالمين} أي ، عالمي زمانهم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب . وجعلهم سادة وموَكَّأً ، وتفضيل الأبا ، شرف للأبا ، فهو يدعوهم إلى العمل بسيرة أبايهم .

ج - وفي تفسير ابن كثير : {وأني فضلتكم على العالمين} على عالم من كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالماً ، ويجب الحمل على هذا . لأن هذه الأمة - الأمة المحمدية - أفضل منهم لقوله تعالى {كنتم خير أمة أخرجت للناس} وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنتم تُوفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله» وقال في مكان آخر : والمقصود أنهم كانوا أفضل أم زمانهم ، وإلا فهذه الأمة - المحمدية - أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعة وأقوم مهجاً ، وأكرم نبياً وأعظم ملوكاً وأعز أرواقاً وأكثر أموالاً وأولاداً وأوسع مملكة وأدوم عزاً (٢٤)

د - ومن معانيها ، أنه تعالى ، فضل هؤلاء القوم بصحبته لموسى عليه السلام وإكرامه لهم بالحقيرات الكثيرة التي حصَّهم بها دون الناس . حيث قال تعالى : في سورة البقرة (٢٠) {وأناكم ما لم يؤت أحداً من العالمين} يعني بذلك ما كان تعالى نزلته عليهم من المن والسلوى ويظللهم به من العمام وغير ذلك مما كان الله تعالى يخصهم به من حوارق العادات ، ليحشهم على الجهاد في سبيل اللّ لأن الأمم الماضية ما كانت تؤمن إلا بخوارق العادات المادية ، فقوله تعالى {ما لم يؤت أحداً من العالمين} أي ، عالمي زمانهم أو من سبقهم ، وإلا فما أعطاه الله لمحمد وأمة أفضل مما أعطاه لهم

٢ - ومن الآيات قوله تعالى على لسان موسى {هاقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم} [المائدة ٢٦] أي ، التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل ، أنه ورائه من أمن صمكم . فالأرض المقدسة ، فلسطين ، هي لكل من آمن بالـ . وكتبه ورسله . فلما كفروا بكتب الله ورسله وغيروا الكتاب المنزل على موسى خرموا من حقهم في الأرض المقدسة ، لأن تقديس الأماكن يكون بوحي من الله تعالى . لا من الناس . وما قدسه الله من الأماكن يكون عاماً لكل من اتبع أوامر الله . وقد آمن بعض اليهود بالقرآن ، وأسلموا . فكان لهم الحق في الديار المقدسة كغيرهم من المسلمين . وبذلك تبطل أكذوبة أرض الميعاد ، التي يتعلل بها

(٢٤) وانظر كتاب «إعظام اليهود» للسؤال بن يحيى الحمري ص ٩٢

المسيحيون، لأنَّ الأرض المقدسة كتبها الله للمؤمنين من أتباع الرسل، ولم يكتبها لمروق مَنين من الناس.

٣ - لم يذكر القرار لبني إسرائيل شيئاً من الفضائل، وما كان لصلواتهم إلا أنبياءهم وقليل من صلواتهم، وأما عامة الشعب، فقد كانوا من المفسدين في الأرض، ولكثرة مفسادهم أكثر الله من إرسال الأنبياء إليهم، فقد روي أنه كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي... وقد أكثر القرآن الحديث عن بني إسرائيل وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية التي تقابل النعمة بالجهود والإحسان بالعصيان. فقد أهدق الله عليهم نعمه وتجاههم من كيد عدوهم وأهلك فرعون وجنوده فما كان منهم بعد هذا الجميل إلا أن عبدوا المجل وتذكروا لدعوة بيهم موسى، وقتلوا الأنبياء وسفكوا دماء الأبرياء، وكانت نهايتهم أن غصب الله عليهم ولعهم، وصرب عليهم الذلة والمسكنة^(٢٥) [ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء، بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون] [آل عمران ١١٢].

وليس أدل على كفرانهم النعمة من هذا المكر السيء الذي يحكيونه للعرب والمسلمين منذ جاء الإسلام، مع أن الإسلام جاء منقذاً لهم من الدمار المحقق الذي لحق بهم في ظل الحكم الروماني ومن سبقهم من الأمم، وذلك باعتراف مؤرخيهم، حيث تقول دائرة المعارف اليهودية العامة: «إن فتح العرب للبلاد أنقذ يهود فلسطين من الدمار الكامل». ويقول المؤرخ اليهودي هيامسون «وعملها فيما يتعلق بيهود فلسطين، فإن المسلمين قد جاءوا كمعتدين وليسوا كمضطهدين»^(٢٦).

● ولم يعد لليهود شأن يذكر بعد غزوة بختنصر، فكانوا بين الحين والآخر، يقومون بالثورات ويقضى عليهم سريعاً، حيث قاموا بثورة سنة ٦٦م وهم سحقها عام ٧٠م على يد طيطوس الروماني، ثم قاموا بثورة بقيادة سمعان المدعو بركوكب وهم القضاء على هذه الثورة على يد هديران الذي نكل باليهود أشد تنكيل ومنعهم من دخول القدس والسكن فيها والدنو منها، وبقي المداء الشديد بين النصارى واليهود حتى الفتح الإسلامي، فطلب أهل القدس ألا يسكنهم فيها أحد من اليهود فأجابهم عمر بن الخطاب إلى طلبهم، وأثبت في عهدهم^(٢٧) وتشبوا في الأفاق ولم يبق منهم في فلسطين إلا العدد القليل.

(٢٥) انظر: «إنعام اليهود، فصل» في إبطال ما يدعونه من محبة الله إياهم». ص ١٢١. و«السيرة والأنبياء» للشيخ محمد الصابري ص ١٨٤.

(٢٦) تاريخ فلسطين: تقديم - لفتح الإسلام حار ص ١٢٥.

(٢٧) تاريخ الطبري ج ٢ / ٦١٠ - دار المعارف.

(أ) فقد زار بنيامين تودولا الإسباني فلسطين عام ١١٧٠ - ١١٧١م وذكر أن فيها (٢٠٠) يهودي وفي القرن المذكور لم يكن في القدس إلا يهودي واحد (تاريخ القدس لعارف العارف ٢٢٥).

(ب) وفي عام ١٢٦٧م كتب موسى بن نعمان جيروندي أن في القدس عائلتين يهوديتين يصلون في الصباغة^(٢٨).

(ج) وبعد ذلك بثلاثة قرون بلغ عددهم في القدس ١١٥ يهودياً.

(د) وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر عجز يهود القدس وعددهم (١٥٠) شخصاً عن دفع دينهم البالغ ألف قرش فوهنوا كنيتهم لدى الدائنين^(٢٩).

(هـ) وكان عددهم في فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر ثمانية آلاف نسمة كما ذكر موسى مونتيغوري الثري الإنجليزي اليهودي موزعين على أربع مدن هي القدس وطبريا والخليل وصفد^(٣٠).

(و) وفي سنة ١٨٤٥م بلغ عددهم اثني عشر ألف نسمة.

(ز) وأما إحصائهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين فقد قدروا بما يلي:

١ - سنة ١٨٨٢م ٢٤ ألف نسمة.

٢ - سنة ١٨٩٠م ٤٧ ألف نسمة.

٣ - ١٩٠٠م ٥٠ ألف نسمة.

٤ - ١٩١٤م ٨٥ ألف نسمة.

٥ - من سنة ١٩١٦م - ١٩١٨م ٥٧ ألف نسمة.

٦ - ١٩٢٢م ٨٣ ألف نسمة، بلغت نسبتهم ١١٪ من مجموع السكان.

٧ - ١٩٣١م ١٧٥ ألف نسمة بنسبة ١٧٪ من مجموع السكان.

٨ - ١٩٤٤م ٥٥٤ ألف نسمة.

٩ - وفي ٢١/٢/١٩٤٧م بلغوا ٦٦٤ ألف نسمة بنسبة ٣١٪.

[انظر بلادنا فلسطين - لمصطفى مراد الدباغ ج ١ / ٥٥٠].

٤ - كيف تسلسل اليهود إلى فلسطين في العصر الحديث.

(٢٨) انظر تاريخ القدس لعارف العارف وكتاب «بلادنا فلسطين» للدباغ ج ١ / ٥٥٠.

(٢٩) تاريخ القدس، لعارف العارف ص ٢٢٥.

(٣٠) العالم العربي - لتجلاء عز الدين ص ٣٠٠.

ما حلّ بفلسطين، نتيجة خطة محكمة، طبقها واضعوها بالتدريج، على حين غفلة من العرب، أو على حين علم وتغافل بعد تشردم الأقاليم العربية وانقسامها إلى دول. لكل دولة علمها، ورئيسها، وعضويتها في عصبة الأمم ثم في هيئة الأمم المتحدة، لأن قانون الأمم المتحدة لا يعترف إلا بالمعروف ولا بالمدعى، فكل دولة تتمتع باستقلالها الداخلي والخارجي لا يربطها بالدولة الأخرى إلا بالروابط الإنسانية أو النفعية أو القانونية التي تقرها الأمم المتحدة كما لا يحق لأي دولة عضو أن تتدخل في شؤون إقليم آخر مهما كانت العلاقات التاريخية بينهما.. وبنا على هذا قالوا: إن إقليم فلسطين غريب عن دول مصر وسورية، ولبنان والأردن.. وغيرها لأنه خارج عن الحدود المعترف بها بين الدول

وكان المخطط قد وضعت خطوطه الأولى منذ عهد مبكى. وقيل عصر الدول. عندما كان العالم العربي جزءاً من الخلافة التركية. وقد التفت في هذا المخطط مصلحتان الأولى: وهي الأهم والأقوى: أطماع الدول الغربية وبخاصة بريطانيا. والثانية: مصلحة وأطماع الصهيونية العالمية ولولا وجود الأولى لما تحققت الثانية

وأطماع الدول الأوروبية بفلسطين قديمة. نظراً لما يمثلها موقع فلسطين الجغرافي من أهمية اقتصادية وعسكرية ودينية. وتشهد الغزوات الصليبية على مدى قوة هذه الأطماع ومداها. واستعادت دول أوروبية اهتمامها بالمنطقة العربية في أعقاب احتلال بريطانيا للهند في القرن السابع عشر، كما انتهت بريطانيا لأهمية المنطقة عندما جرد آل نابليون حملته على مصر وفلسطين في أواخر القرن الثامن عشر، فظهرت رغبتها في السيطرة على المنطقة بشكل أكثر مباشرة لما انطوت عليه حملة نابليون من تهديد خطير لمصالح بريطانيا في الهند.

ولذلك أرادت أن تحتفظ بالمنطقة لحساب نموذها. ومن هنا كانت تعارض قيام أية دولة لها قوة حقيقية محلية في المنطقة ولذلك نظرت إلى بروز محمد علي الكبير في مصر بقلق بالغ ما لبث أن تحول إلى تدخل عسكري عندما هزمت جيوش محمد علي، بقيادة ابنه إبراهيم باشا، الجيوش العثمانية ووحدت مصر وسورية الطبيعية، مهددة بذلك عاصمة الدولة العثمانية ومصالح الدول الأوروبية في المنطقة، وعلى إثر ذلك عملت بريطانيا على الحفاظ على المصالح التجارية البريطانية في المنطقة تحت ستار حماية الأقليات الدينية وأعادت بريطانيا حمايتها للدروز والبروتستانت واليهود في سوريا وجبل لبنان، وفلسطين، كما كانت الدول الغربية قد فرضت على تركيا ما عُرف بالامتيازات الأجنبية، فصار المقيمون الأجانب دولة داخل دولة لا تسري عليهم القوانين العثمانية...

وفي سنة ١٨٢٩م أقامت بريطانيا أول قنصلية غربية في القدس وجهت معظم جهودها لحماية الجالية اليهودية في فلسطين.. ولم تكن أهداف القنصلية الحماية فقط، لقد كان عدد

اليهود انداك لا يتجاوز تسعة الاف نسمة^(١١) مورعين في أربع مدن، وإنما كان الهدف استخدام جاليات يهودية لأسباب ودوافع استعمارية. وقد ظهر هذا الهدف في رسالة بعث بها رئيس وزراء بريطانيا إلى سفيره في استنبول، جاء فيها «إن دعوة الشعب اليهودي إلى فلسطين، بدعوة من السلطان وتحت حمايته تشكل سداً في وجه مخططات شريرة يعدةا محمد عني أو من يحلقه^(١٢) من هنا نرى كيف ارتبطت منذ البداية فكرة تشجيع استيطان اليهود لفلسطين بفكرة إقامة حاجر بشري استعماري غريب. يحول دون قيام دولة عربية مستقلة تضم المشرق العربي، وأفريقية العربية. حفاظاً على استمرار السيطرة الأجنبية على خيرات الوطن العربي.

وكانت المفاوضات قد بدأت بين روسيا وفرنسا وبريطانيا حول تركة الدول العثمانية، ولما نشبت الحرب الأولى، تم الاتفاق بين الدول الثلاث على تقسيم الحصص فال إنجليز فيما نالوه الاعتراف بأن تكون السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا قسماً منطقة نفوذ إنجليزية، أما بقية فلسطين فتكون دولية، ثم عقد الإنجليز مع الفرنسيين سنة ١٩١٦م معاهدة سايكس بيكو، حيث ثبت منها خليج عكا الذي يضم ثغري عكا وحيفا منطقة إنجليزية، وبقيت المناطق الأخرى من فلسطين دولية.. على أن الإنجليز لم تفر همتهم في أن تكون فلسطين لهم، فاحتذوا من اليهود وحركتهم وسيلة لتحقيق مأربهم، حيث أحدثت فكرة استعمار واستيطان فلسطين قد أخذت تقوى في هؤلاء نتيجة لما كانوا يلقونه من اضطهاد وخاصة في وسط أوروبا، وشرقا وانتشار الفكرة القومية في العالم، وقد سعى اليهود بوسائل مختلفة من حملتها وساطة بريطانيا نفسها لدى الدولة العثمانية لتحقيق فكرتهم هذه، فلم يستطيعوا أن يتألموا إلا نتائج شقة المدى. كانت مع ذلك نواة مشروعهم حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى، تصامن اليهود مع الحلفاء، وخاصة مع بريطانيا من أجل أربهم، وسارع الإنجليز إلى تبني قضيتهم حينما لاح لهم النصر، واحتل قائدهم «النبى» المناطق الجنوبية من فلسطين، فأصدروا تصريح بلفور في ٢/١١/١٩١٧م، وبعد الهدنة أخذوا يصطلون على فرنسا للتسليم بسيطرتهم على فلسطين بدلاً من الإدارة الدولية، وبلغ

(١١) ذكرنا في ٢٢، أن عدد اليهود في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي ثمانية الاف نسمة، حسب تقرير مونتغومري، دون تحديد السنة أما الرقم «تسعة الاف» فهو مقول عن تقرير القنصلية البريطانية في القدس، وعلاقاتها بيهود فلسطين من سنة ١٨٢٨ - ١٨٩٤م - وانظر «تاريخ فلسطين الحديث» للدكتور عبد الوهاب الكيالي - بيروت سنة ١٩٧٢م

(١٢) «تاريخ فلسطين الحديث» للدكتور عبد الوهاب الكيالي، ص ٢٧ نقلاً عن وثائق الخارجية البريطانية

منطقة شرق الأردن التي كانت جزءاً من سورية إدارياً. وكانت تقع في نفوذ فرنسا^(٤٢) والموافقة على دخول المنطقتين تحت انتدابها وسيطرتها... وما إن وضعت بريطانيا يدها على البلاد حتى أخذت في تنفيذ وعد بنمور. فكانت كل وظيفتها مدة الانتداب ١٩١٧ - ١٩٤٧م أن تسهل هجرة اليهود إلى فلسطين وامتلاكهم الأرض. فكيف تم ذلك، وكيف حار اليهود الأرض قبل سنة ١٩٤٨م؟

٢- كيف امتلك اليهود أرضاً في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨م:

لقد دأب اليهود وحمائهم بعد قيام الدولة اليهودية إلى تركيز الدعاية الكاذبة ضد عرب فلسطين. لإثارة كراهية العرب نحوهم. لأنهم ظنوا - مع ما وقع عليهم من شذائد ومحن تلك الجبال - أشد الأصوات ارتعاعاً وتصميماً على الثأر والعودة واسترداد الوطن الشهيد. وبما أشاعه اليهود. ولا كنه أسنة الجهال من العرب وغيرهم - أن عرب فلسطين هم الذين يسروا قيام الوطن القومي اليهودي بما باعوه من أرض. وظهر بينهم من سماسرة وخونة.. وقد شاع هذا القول حتى رددته بعض حملة الأقلام.. جهلاً. أو غفلة. إذا أحسننا الظن في بني قومنا.. بل كما نسمعه من جنود وضباط بعض الجيوش العربية التي دخلت فلسطين منقذة محزنة.. ومن الملاحظ أن هذه الأسطورة تخمد أحياناً. ونحيا وتنشط أحياناً أخرى. ومن يراقب الأوضاع عن كثب. يلاحظ أن قوة الإشاعة تتناسب مع ما يظهره الفلسطينيون من قوة. وصمود وثبات على مبدأ العودة إلى الوطن. فكلما سفد الفلسطينيون جهادهم وأظهروا قوة شكيمة. سمعنا بعض الأصوات التي تمخض الكذب. تردد نشيد الأعداء. وتصرب على أوتارهم.

ومن الغريب العجيب أن بعض من يردد هذه الفرية يدعي العلم والمعرفة والتثبت والتدقيق في رواية الأحداث فإذا تحدث في الموضوع. طمس على قلبه. وفقد البصر والبصيرة وعجز أن يأتي بدليل واحد على ما يقول. فليس عند هؤلاء رواية موثوقة متواترة (حدثني فلان عن فلان) من أهل الصدق في الرواية. وليست عندهم وثيقة رسمية يعتمدون عليها. ولم يقرأوا ذلك في كتاب معتمد مبني على الوثائق.. فكيف يقبلون الاعتماد على القصص الملفقة في موضوع له مساس شديد بالعقيدة. والعروبة والأمة؟..

وأنا عندما أضع الحقائق أمام القاري. بصفتي الفلسطينية. أو العربية. لا أدافع عن الفلسطينيين. ولا أدفع عنهم ذنباً اقترفوه ولا أعذر عن أمر فعلوه. ولا أفعل ذلك

لأنهم أهلي وبني قومي، على طريقة الجاهليين - انصر أحاك ظالماً أو مظلوماً - وإنما أكتب ما أكتب إنصافاً للبرى، وشهادة في حق المظلوم، وتصحيحاً للتاريخ وتقوية وتقوية للروايات، معتمداً في ذلك أصدق المصادر وأثبت الروايات.

وإذا لم يبع الفلسطينيون أرضهم إلى اليهود، فكيف تم امتلاكهم الأرض قبل سنة ١٩٤٨م. وكيف تم توطين الآلاف من اليهود الذين كانوا يتدفقون أيام الانتداب البريطاني، وقبله؟ في الجواب عن هذا السؤال، إيجاز وتفصيل.

أما الموجز فيقول:

إن مجموع مساحة فلسطين نحو سبعة وعشرين مليون دونم، أي، ٢٧ ألف كيل مربع، بلغ مجموع ما امتلكه اليهود حتى نهاية عهد الانتداب نحو ١١ مليون دونم، أي، ٧٪ من مساحة فلسطين تقريباً. وفي إحصاء آخر أن مجموع ما حصل عليه اليهود ١.٥٨٨.٣٦٥ دونماً من مجموع مساحتها، وهو يشكل ٦.٥ في المائة من مجموعها. وقد تم هذا خلال عشرات السنين (قبل الانتداب البريطاني) من جهود الصهيونية العالمية، وفي مدة ثلاثين سنة من جهود بريطانيا الحاكمة.

ومجموع ما انتقل إلى اليهود من أيدي الفلسطينيين لا يزيد عن ربع مليون دونم ٢٥٠.٠٠٠ دونم، وهو يساوي أقل من ثمن ما حصل عليه اليهود. وأما سبعة الأثمان الباقية فقد حصلوا عليها من ثلاثة مصادر أخرى، هي: الحكومة التركية - والحكومة البريطانية ومن تجار الأراضي ومالكها من غير الفلسطينيين الذين ليست لهم بأرض فلسطين وأهلها، لا صلة النسب ولا صلة القرابة، ممن سنعرف أسماءهم فيما يأتي من التفصيل... وما كان هؤلاء الفلسطينيون القليلو العدد يبيعون هذه الدوومات لولا السياسة التي اتبعتها الدولة المنتدبة لإفقار الفلاح الفلسطيني، وجعله في حال تجبره على التخلي عن أرضه، بفرض الضرائب الباهظة، وخنق الاقتصاد العربي، وفرض قوانين جمركية لحماية الصناعة اليهودية.

أما بقية الأراضي، فقد حصل اليهود على ٦٥ ألف دونم امتلكها اليهود في عهد الدولة العثمانية، إما بواسطة الهبة، وإما بواسطة الشراء من وهتهم الدولة العثمانية الأرض، وهم ليسوا من فلسطين. و ٣٠٠.٠٠٠ ألف دونم منحتها لهم حكومة الانتداب بدون مقابل و ٢٠٠.٠٠٠ ألف دونم منحتها إياهم حكومة الانتداب بأجرة رمزية و ٦٠٠.٠٠٠ دونم اشتراها اليهود من عائلات غير فلسطينية^(١١).

وأقلل هنا شهادة اثنين من اليهود الذين كان لهم مشاركة فعالة في شراء الأراضي من خلال الوكالات والجمعيات اليهودية.

أولهما، الدكتور روبين من رجال الوكالة اليهودية في القدس. فقد قال في شهادة أدلى بها أمام لجنة التحقيق، إن تسعة أعشار الأراضي التي اشتراها اليهود حتى عام ١٩٢٩م، اشترتها من ملاك غير فلسطينيين يعيشون خارج فلسطين.

والثاني، هو الدكتور برنارد جوريف، وهو محام يهودي، كلفته الوكالة اليهودية أن يدلي بشهادة أمام اللجنة الملكية حول قانون الأراضي وأراضي الدولة بفلسطين في الجلسة المنعقدة في القدس بتاريخ ١٢/٥/١٩٣٧م «إننا في خلال خمسين عاماً (٣٢) في العهد العثماني و١٨ سنة منذ الاحتلال البريطاني) قد اشترينا ١.٣٠٠.٠٠٠ دونم، وهذا كله يعادل خمسة في المائة من مجموع أراضي فلسطين وإذا نحن واصلنا على شراء الأراضي بالمعدل السنوي نفسه، فإننا نحتاج إلى مئة وخمسين سنة لشراء نصف الأراضي. باستثناء أراضي بئر السبع، وإذا أدخلنا أراضي بئر السبع احتجنا إلى ثلاثمائة سنة لشراء نصف فلسطين. وإلى ستمائة سنة لشراء فلسطين كلها. هذا إذا استمرت السياسة المواتمة. وقال، إن الفلاح العربي في فلسطين ذكي وداهية متوقد الذهن صلب الرأي شديد المراس ماوم ماهر. وعلى كل من يفاوض عربياً لشراء أرض، كما جرى معي أنا شخصياً أن يعلم أنه أمام ممسك الديدن، قدير، متذرع بالصبر الطويل، لا يتسرع في بيع أرضه...» (١٥)

وإذا لم يمكن الفلسطينيين قد باعوا الأرض، فكيف وصلت إلى العائلات غير الفلسطينية التي باعتها إلى اليهود، وكيف تمكنت حكومتا تركيا وبريطانيا منح أراضي فلسطين إلى اليهود، وما دليل صدق ما تقول، أقول، إن الأجوبة عن هذه الأسئلة، هو تفصيل ما وعدت به في بداية هذه الفقرة، وأما المصادر التي استقيت منها هذا البحث، فإنني أذكرها في نهاية الكلام. وهي تعتمد على وثائق مكتوبة لا تقبل النقض، لأنها شهادة الأعداء والأصدقاء، أما سجلات الأعداء، فهي تقارير السلطة البريطانية المنتدبة وسجلات الأراضي (الكابو)... ولدى مؤسسة الدراسات الفلسطينية ملفات إحصائية تفصيلية في الموضوع، فمن أراد أن يتثبت فليرجع إليها.

أما كيف حصلت العائلات غير الفلسطينية على أرض فلسطين، وكيف قدمت حكومتا تركيا وبريطانيا الأرض إلى اليهود، فالجواب عنهما في هذا التفصيل.

● أقول، لم يكن يسمح للسكان اليهود في فلسطين في أوائل القرن التاسع عشر أن تشتغل بغير التجارة. وفي مطلع عام ١٨٣٧م - أيام الحكم المصري لفلسطين - طلب يهود القدس السماح لهم بشراء الأملاك والأراضي الزراعية وممارسة الخراثة والزراعة وبيع الأغنام والأبقار. ولما عزم الأمر على مجلس الشورى في بيت المقدس. رفض الطلب. ولم يسمح لليهود إلا بالاستغلال بالتجارة فقط وقد صادق على هذا القرار صاحب مصر محمد علي باشا في حينه.. (١٦)

وكانت إقامة اليهود مقصورة على المدن الأربع: القدس، وطبرية، وصفد والخليل، وكان معظمهم من المتدينين الذين كانوا يعيشون على نظام الصدقات اليهودية، وعمل نفرٌ منهم مهنيين وفنيين وبرعوا في الصياغة والحداثة وإصلاح الساعات وتجليد الكتب.

ومنذ أن بررت سياسة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، أخذت الصهيونية تسمى منذ أواخر العهد العثماني وطول فترة الانتداب البريطاني للحصول على الأراضي الزراعية نشتي السبل. وتكونت جمعيات وهيئات لهذا الغرض، وبدلوا الأموال الطائلة وأغلوا ثمن الأرض إلى شكل خيالي (١٧). وما ساعد على تملكهم الأرض بمساحات واسعة في فلسطين.

أ - الهبات والعطايا من الدولة الحاكمة: ففي عهد السلطان عبد العزيز العثماني (١٨٦١ - ١٨٧٦م) منحت الحكومة العثمانية اليهود أرضاً مساحتها (٢٦٠٠) دونم بالقرب من يافا وأقيمت عليها في عام ١٨٧٠م مدرسة زراعية حملت اسم «مكفة إسرائيل» بمعنى «أمل إسرائيل» وتعرف باسم مدرسة «نير» نسبة إلى مديرها ومؤسسها اليهودي «نير» والغرض من تأسيسها بث الروح الزراعية بين اليهود المقيمين في فلسطين (١٨).

ب - سياسة سلطات الانتداب البريطاني لزاء الاستيطان اليهودي: فقد ألت جميع الأراضي التي كانت بحيازة الحكومة العثمانية إلى إدارة الانتداب على فلسطين، ووضعت سلطة التصرف فيها بيد المدبوس السامي البريطاني. فكان من حقّه وحده إجزاء المنح منها أو تأجيرها أو السماح بالاستقرار فيها.

وقد سارع أول مدبوس سامي بريطاني. هربرت صمويل. وهو يهودي صهيوني كما وصفه واهيزمان في مذكراته إلى تقديم ١٧٥ ألف دونم من أحصأ أراضي الدولة على الساحل

(١٦) في بيت المقدس «لمصطفى الدباغ». ص ٢٧ نقلاً عن المصوغات الملكية لمصرية (١٧) في شهادة الحاج أمين الحسيني سنة ١٩٣٦م أمام اللجنة الملكية، أن اليهود كان يملكون حتى سنة ١٩١٧م مائة ألف دونم تقريباً.

(١٨) صدر القرار سنة ١٨٧٠م. ونشرت نصه جريدة فلسطين سنة ١٩١٢م انظر «في بيت المقدس» لمصطفى الدباغ ج ٢ / ٤٢

بين حيناً وحيناً هدية إلى أبناء مذهبه الصهيونيين، أتبعها بعد ذلك بدفعة ثانية مقدارها ٧٥ ألف دونم على البحر الميت لإقامة مشروع شركة البوتاس، وتكررت هباته السخية إليهم من الأراضي الساحلية الحصينة حتى بلغ مجموع ما منح للصهيونيين أو نقل إليهم من أراضي الدولة نحو مئتين وربع من الدونمات أي ١.٥٨٪ في مجموع الأراضي التي كان يملكها اليهود عام ١٩٤٨م^(٤٩).

ج - نظام الإقطاع: فقد ساد في فلسطين إبان الحكم التركي، النظام الإقطاعي، فاحتكرت الأرض حفنة من العائلات والأغنياء من داخل فلسطين وخارجها، وقد باع هؤلاء الأرض إلى الصهيونيين.

د - نظام الضرائب: فقد أدت زيادة الضرائب، وعجز الفلاح عن سدادها إلى حرمة الدولة، إلى استيلاء الدولة على أراضي الفلاحين وقراهم وعرضها في المزاد سنة (١٨٦٩م) لاستيفاء ديون الضرائب، وهكذا حصل أغنياء بيروت وتجارها من أمثال عائلات سرقس، وتويسي، ومتى، وفرج وسليم الخوري، على أخصب أراضي فلسطين في مرج بن عامر ووادي الحوارث والجليل^(٥٠).

هـ - القوانين البريطانية: فقد سنت سلطة الانتداب قانوناً للأراضي كان هدفه تسهيل وصول الأرض إلى الصهيونيين، ومن تلك القوانين أنه يحرم على الملاك الذين لا يسكنون فلسطين استغلال أراضيهم، وكانت هناك إقطاعات واسعة تملكها عائلات لبنانية وسورية تقيم في بيروت ودمشق، وهذه الإقطاعات كانت من أجود الأراضي التي استهدفها القانون - فباع هؤلاء أراضيهم إلى الصهيونيين، لأنهم يدفعون من الأثمان ما لا يدفعه غيرهم، ومالكو الأرض 'تربطهم بالوطن عاطفة'^(٥١).

و - نظام ملكية الأرض: فقد كانت معظم الأراضي الزراعية من الأراضي الميري التي تملكها الدولة العثمانية، وبحق لها استرجاعها من المستمع بها إذا رأت أن صاحبها قد أهملها، وفي المناطق التي كان يحق للمواطن استخراج الحجة بامتلاك أرضه كان العرب يحجمون عن ذلك فراراً من الضرائب الكثيرة^(٥٢).

(٤٩) انظر «مذكرات عبد الله التل» - ص ٢٥٠.

(٥٠) التنمية الفلسطينية، لمصدر حوزة دروزة ج ١/٦٠.

(٥١) بين سنة ١٩١٧م إلى ١٩٢٠م - باع سرقس دفعة واحدة من الأرض مقدارها (٤٠٠) ألف دونم، ولم تكن تسجل في الكبر في حينها [مذكرات أكرم رعيتر ص ١٦١].

(٥٢) الموسوعة الفلسطينية مادة (أرض)

ر - صك الانتداب البريطاني الذي كان هدفه الوحيد ، تهيئة الأحوال لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وتحقيق وعد بلفور .

٥ - إحصاءات عينية لما اشتراه الصهيونيون من غير الفلسطينيين :

كانت أهم المناطق التي شهدت قيام بعض الأسر الإقتصادية غير الفلسطينية ببيع ممتلكاتها منها للصهيونيين والتمهيد لطرد سكانها العرب منها ، سهل مرج بن عامر ، وسهل الحولة ، وسهل عكا ، والجر ، الشمالي من السهل الساحلي الفلسطيني .

أ - سهل مرج ابن عامر : كانت أراضي سهل مرج بن عامر وسهل بيسان في العهد العثماني ملكاً للسلطان العثماني ، وكان الفلاحون الفلسطينيون يستقلونها ويدفون ما عليهم للسلطان لقاء استغلال الأرض (العشر) ، ثم منح السلطان العثماني صياقة يقيمون في بيروت ما مساحته ٢٢٠ ألف دونم من أراضي المرج مقابل خدماتهم له .

وفي عام ١٨٦٩م اضطرت الحكومة العثمانية إلى بيع بعض تجار وأغنياء بيروت معظم ممتلكاتها في سهل مرج بن عامر ، ومن الثرى التي بيعت في هذه الصفقة ، جنجار - العقولة - خنيفس ، أم التوت - تل الشام - تل الفر - تل العدى ، معلول ، سمونه ، كفرتا ، جيدا ، أم العمدة ، وطبعون ، والشيخ بريك ومسحة ، وجبانا ، والورقاني (٥٢) .

وفي عام ١٨٧٢م باعت الحكومة إقطاعيين آخرين قرى ، الحارثية والياجور والحربية .. وقد باع هؤلاء التجار إلى الصهيونيين بين عامي ١٩٢١ - ١٩٢٥م أكثر من مائتي ألف دونم من أراضيهم في سهل مرج بن عامر ، وكانت تلك الأراضي تشتمل على ٢٢ قرية عربية تقطنها ١٧٤٦ عائلة ونتيجة للبيع ، اضطر أفراد العائلات العربية البالغ عددهم تسعة آلاف نسمة إلى ترك الأراضي وهجر المنازل ، تحت تهديد سلطات الانتداب البريطاني فاستولى الصهيونيون على الأرض والقرى وأقاموا فوق أنقاضها ست وخمسين مستعمرة صهيونية ، أشهرها كفر باروخ ، وبهلال ، وكفار دافيد وعين حارود ، ومرحفا (٥٣) .

ب - سهل الحولة : تقدر مساحة هذه المنطقة بنحو ١٦٥ ألف دونم ، وكانت الحكومة العثمانية قد أعطت إحدى الأسر اللبنانية امتيازاً بنص على استصلاح ٥٥ ألف دونم من أراضي مستنقعات الحولة ، وعندما صجرت هذه الأسرة عن تنفيذ الامتياز باعت للصهيونيين ، وكان من نتائج ذلك أن طردت العائلات العربية من قرأها الواقعة ضمن منطقة الامتياز ، ومن

هذه القرى: خان الدوير، ومداخل، والمنثنية، ودقنة، وحقاب والمظنة^(٥٥).

ج - سهل عكا: كانت أسرتان لبنانيتين تحتلان مساحة كبيرة من أراضي سهل عكا، وقد بيعت هذه المساحة الواسعة إلى الصهيونيين. وكانت تصم هذه المنطقة عدداً من القرى العربية منها: الانشراح، وحانوتا والدار البيضاء، والهريح، وقد أخرج سكان هذه القرى العربية من أراضيهم عنها تسليم البائعين أثمانها، وعندما كان المواطنون يرفضون الخروج من بيوتهم تسلط عليهم يتأدق الجيش الإنجليزي.

د - القسم الشمالي من السهل الساحلي لفلسطين

اشتمل هذا القسم الشمالي من السهل الساحلي على مستنقعات وكثبان رملية في مساحة صغيرة منه في حين كان معظمه أراضي خصبة صالحة للزراعة، وقد تمكن بعض الإقطاعيين من امتلاك جزء من هذه الأراضي فحصلت أسرة لبانية إقطاعية على ملكية وادي الخوارث محدة من السلطان العثماني مقابل خدمات قدمتها له، وامتلكت أسرة أخرى أربعة آلاف دونم في وادي القباي.. فأقدم أخذ الإقطاعيين عام ١٩٢٢م على رهن حصته في أراضي وادي الخوارث عند رجل فرنسي، فباعها انغوتسي إلى الصهيونيين ثم اشترى الصهيونيون حصة إقطاعي آخر. ثم ادعى الصهيونيون أن البيع يشعل ما يخص قبيلة الخوارث العربية، ونظرت المحكمة في القضية وكانت في جانب الصهيونيين. فقامت سلطات الانتداب بطرد العرب من وادي الخوارث سنة ١٩٢٢م وكان عددهم خمسة عشر ألف عربي.^(٥٦)

٦ - تلخيص الأرقام^(٥٧)

أ - استولى اليهود على أربع مائة ألف دونم من الأراضي الزراعية في عهد الدولة العثمانية، بالهبة أولاً، وبالشراء من ملاك كبار، وليسوا فلاحين، وهم في جملتهم غير فلسطينيين.

ب - وحصلوا على ٢٠٠.٠٠٠ دونم من الدولة البريطانية زجيرة.

ج - وحصلوا على ٨٠٠.٠٠٠ دونم اشتروها من ملاك غير فلسطينيين. في العهد البريطني، وكانوا قد اشتروها بالمراد من الدولة العثمانية، حيث كانت بعض القرى تتأخر عن دفع الأعشار للدولة، فكانت الدولة العثمانية تبيعها بالمراد. وكان أهل القرى قد رفضوا

(٥٥) «الاستيطان اليهودي في ريف فلسطين» في مجلة «دراسات عربية» سنة ١٩٧٥م.

(٥٦) الموسوعة الفلسطينية (وادي الخوارث).

(٥٧) لتوثيق سطر «سكية» لعارف العارف، الجزء الخامس «مذكرات عبد الله التل» ومعجم بلدان فلسطين» للكاتبة ص ١ - ٤ وكتاب «جهاد شعب فلسطين في نصف قرن» لصالح مسعود ص

تسجيل أرضهم على أنفسهم خوفاً من الجندية والضرائب، فاعتبرتها الدولة العثمانية محلولة من العقد وباعتها بالمزاد. وبهذه الطريقة اشتراها ملاك من سورية ولبنان

د - إن مجموع ما منحتة حكومة الانتداب ليهود، هو نصف مليون دوغم من أملاك الدولة، ثلاثة أحماسها بلا مقابل، والخمسة الباقين لقاء أجره اسمية

هـ - اشترى الصهيونيون ما مقداره ١.٢٤٧.٠٠٠ دوغم من أصحاب الإقطاعات الواسعة من خارج فلسطين، وكلهم لبنانيون وسوريون منهم: آل سرموق، من بيروت، باعوا ١٠٠.٠٠٠ دوغم من أراضيهم الواقعة في سهل مرج بن عامر. وقد أنشأ اليهود فوق الأراضي التي اشتروها من آل سرموق وحدها ستاً وخمسين مستعمرة أنشأوها على أطلال خمس عشرة قرية عربية كانت هناك.

وال ألتيان والقباني، من بيروت، باعوا ٢٩.١٢٤ دوغماً من أراضي وادي الحوarth.

وال الصباغ والتويني، من بيروت، باعوا أراضيهم الواقعة في السهل الساحلي بين عكا وحيفا. وفيها قرى الريح، والدار البيضاء، والانشراح

وال الجرائولي وشمعة، والقوتبي من سورية باعوا أراضي قرية المشية شمال شرقي عكا والعمري من دمشق باعوا أراضي قريتي إجيل والحرم (مطلقة يافا ومساحتها حوالي ١٦ ألف دوغم. وطرد منها ٧١ مزارعاً عربياً. إنظر فلسطين والانتداب البريطاني) لكامل حنة من ٤٩٢.

وال المارديني من سورية باعوا قرية «فندق» من أراضي صفد.

... وهناك عائلات أخرى لبنانية كانت تمتلك أراضي على الحدود الشمالية لفلسطين، باعوها أيضاً إلى اليهود الصهيونيين.

ويمكن تحديد مصادر الأراضي التي حصل عليها اليهود فيما يلي:

١ - الملاك العائليون ومعظمهم من الأسر اللبنانية والسورية.
٢ - الحكومة العثمانية وذلك عن طريق المزاد العلني الذي تباع فيه أراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب.

٣ - الملاك الفلسطينيون^(٥٨) ومنهم عائلات - كسار - روك خوري، حنا - إنقلأ عن تاريخ

(٥٨) إن مجموع ما انتقل إلى اليهود عن طريق الفلسطينيين، يتراوح بين ١٠.٠٠٠ دوغم. وبين نصف مليون دوغم، على اختلاف الروايات، وكان الباشاؤون على الأغلب، من الإقطاعيين، والأندنية وليسوا من الملاحين، ومهما كان الأمر، فإن هذا الرقم، لا يشكل قاعدة لإقامة المجتمع الصهيوني ولا يمكن أن يوصف شعباً بأهميته، من أجل هذه النقطة البارزة، بأنه لم يوط في أرضه، وفي كل مجتمع يوجد مثل هؤلاء العائليين الذين ينظرون إلى الوطن، من ناحية منظرهم الشخصي المعنى

فلسطين الحديث للدكتور عبد الوهاب الكيالي، عن مخطوط مؤلف سنة ١٩١١م.
٤ - الهبات من سطات الانتداب البريطاني.

- موقف العرب الفلسطينيين من بيع الأراضي واستيطان اليهود (٥٩):

لم يقف العرب مكتوفي الأيدي إزاء هذه القضية، فأعلنوا الحرب عليها بكل ما لديهم من وسائل وأذكرها بعض المواقف التي تدل على الاستنكار الشديد، والمقاومة بكل الوسائل المتاحة:

أ - كان بعض الفلاحين الميسورين من الفلسطينيين يشترون الأراضي التي يصل إلهم أن أصحابها من الفلاحين الفقراء، أو من الاقطاعيين يزعمون بيعها إلى جمعيات صهيونية، كما أن المجلس الإسلامي الأعلى، تدخل لشراء بعض الأراضي من أصحابها عشية تسريبها إلى الصهيونيين، ومع ثقل هذه المهمة وصعوبتها فقد اشترت في بعض الأماكن قرى بأكملها مثل قرية «دير عمرو» وقرية «زيتا» التي دفع في سبيلها ٥٤ ألف جنيه استرليني، وكذلك الأرض المشاع في قرى «الطيبة» و«عتيل» و«الطيرة» ونهض صندوق الأمة أيضا واشترى بعض الأراضي من الذين ألقاهم الدين، ودخل في قضايا كثيرة حتى أنقذ أراضي البطيحة وعرقل بيعها وحمل حقوق المزارعين.

ب - بدأت الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين العرب والغزاة الصهيونيين منذ عام ١٨٨٩م، عندما هاجم الفلاحون (المطروودون من قرانم في القصيرة وميس) الغزاة ليهود... ودفعت هذه الاصطدامات في عام ١٨٨٧م إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهيونيين الذين كانوا يدخلون البلاد سياحاً بحيث لم يعد يسمح لهؤلاء السباح بالإقامة أكثر من ثلاثة أشهر، بموجب جواز سفر أحمر عوضاً عن جوازهم الأصلي عند دخول البلاد، وقد تكررت الهجوم على قرى يهودية أخرى ولدوافع نفسها عام ١٨٩٢م.

ج - عندما عين رشاد باشا متصرفاً لسنجق القدس، وأبدى محاباة للصهيونيين، قام وفد من وجهاء القدس سنة ١٨٩٠م بتقديم عريضة احتجاج صده إلى رئيس الوزارة العثمانية، كما طالبوا بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين وتحريم استملاكهم الأرض.

د - في سنة ١٨٩٧م، حارب مفتي القدس محمد طاهر الحسيني، الهجرة اليهودية والاستيطان الزراعي اليهودي قترأس عام ١٨٩٧م هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية

(٥٩) انظر لتوثيق هذه الفترة «مذكرات أكرم وعيتر عن الثورة الفلسطينية» من سنة ٢٥ - ١٩٢٩م
و«تاريخ فلسطين الحديث» للدكتور عبد الوهاب الكيالي.

مهمتها التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس، فحال بذلك دون حصول اليهود على أراضٍ زراعية جديدة لسنوات عديدة.

هـ - وفي سنة ١٩٠٠م قامت حملة جماعية ضد شراء الأراضي. وحدث أن قامت الجمعيات اليهودية بشراء مساحة واسعة من الأرض من عائلة سرسق اللبنانية بالقرب من طبرية، فما كان من فلاحي القرى المجاورة إلا أن هاجموا الفنين الذين جاءوا لمسح الأرض تمهيداً لنقل ملكيتها، وقد نجح العرب بالفعل في استصدار أحكام من الباب العالي بإلغاء بعض الصفقات التي عقدها الصهيونيون في مطلع القرن العشرين.

و - عندما دعا العرب إلى الاستقلال عن تركيا، وجدت هذه الدعوى صدى في فلسطين، وكان من أهم أهداف الاستقلال عن تركيا، الاعتقاد باستحالة صد الخطر الصهيوني في إطار دولة مكبلة بقيود الامتيازات الأجنبية التي كان اليهود يستغلونها.

ز - في سنة ١٩٠٨م أثار توافد يهود الهجرة الثانية، استياء الفلاحين الفلسطينيين ورافق الاستياء من قدوم المستعمرين الصهيونيين موجة من الغضب على الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يجنون الأرباح من بيع الأراضي للصهيونيين.

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٠٨م وردت تقارير تدل على أن الفلاحين في منطقة حيفا وطبرية يشعرون شعوراً من العداء نحو الملاك العرب أصحاب الأراضي الشاسعة «مصطفى باشا، فؤاد سعد، آل سرسق».

ح - في سنة ١٩٠٩م نبه أحد طلبة الأزهر الفلسطينيين في جريدة الأهرام القاهرية إلى أن اليهود كانوا يتبعون وسائل خبيثة ملتوية، كرشوة الحكام العثمانيين وذلك بقصد تسهيل شرائهم الأراضي في فلسطين.

ط - بدأت المعارضة أيضاً قوية منذ نشوء الصحافة العربية في فلسطين. فقد حذرت صحيفتا «الأصمعي» و«الكرمل» من الخطر الصهيوني. وكشفت جريدة الكرمل خاصة الخطر الصهيوني على فلسطين.. وأدت شكاوى اليهود من المقالات التي تنشرها الكرمل إلى إصدار أمر بتعطيلها تعميلاً مؤقتاً سنة ١٩٠٩م.

ي - وفي سنة ١٩١٠م هاجمت الصحف العربية آل سرسق لاعتزامهم بيع قرىتي «فولة» و«عقولة» لليهود. وأرسل سكان الناصرة وحيفا برقيتين إلى الحكومة المركزية محتجين فيها على السماح ببيع الأراضي لليهود.. ولم تذهب الاحتجاجات لدى السلطات العثمانية سدى، حيث أدت إلى تجديد القيود على بيع الأراضي إلى اليهود.

ك - حرصت فيما سبق على عرض قليل من أمثلة اليقظة العربية في فلسطين لمخاطر

الصهيونية منذ أيامها الأولى ولم استقص كل ما حدث من حركات تناوى الصهيونية في العصر التركي وقد استمرت ثورات عرب فلسطين متوالية طيلة عهد الانتداب البريطاني مستخدمين كل ما استطاعوا إعداده من الأسلحة، بدءاً بالكلمة، ثم الأسلحة المادية من العصا، والسيف، والبنديقية، والقنبلة، والحجر... الخ ولم تهدأ الثورات منذ انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى انتهى الانتداب.. وقد حارب الفلسطينيون وحدهم الإنجليز واليهود ثلاثين عاماً - مدة الانتداب - فلم ينجبوا ولم يهنوا، وقد صمدوا للجيش البريطاني، فكسروا كتابه الأولى التي جاءت تحاربهم بقيادة الجنرال «ديل» سنة ١٩٢٧م، والثانية بقيادة الجنرال وبغل سنة ١٩٢٨م، والثالثة بقيادة الجنرال هاينغ سنة ١٩٢٩م... والأيام الكبرى في تاريخ جهاد أهل فلسطين، تعتبر من تاريخ الاقتداء في تاريخ العرب... هذا الشعب الذي وقف في وجه بريطانيا العظمى، والصهيونية العالمية، وقدم آلاف الشهداء من أجل الحفاظ على أرضه، لا يمكن أن يوصف بأنه باع أرضه، وكيف يفور ويحمل السلاح من باع أرضه؟ كيف يبيع أرضه وهو الذي اشترى السلاح للدفاع عنها، بثمان أسورة زوجته، وبميره الذي يحرق عليه الأرض، وثمان كيس القمح الذي كان يدخره لقوت عياله؟..

وقد رأينا، كم حصل اليهود من الدوغمات حتى نهاية عصر الانتداب، (حوالي مليوني دوغم) من أصل (سبعة وعشرين مليون دوغم) مع كل ما استخدموه من وسائل القس والحداع وأدوات الدمار وتكالب القوى العالمية على أهل فلسطين.. أما باقي فلسطين التي حصلوا عليها سنة ١٩٤٨م فكان بالغزو الصهيوني المسلح الذي حرم أهل فلسطين من المشاركة في دفعه عن البلاد حيث جرد الفلسطينيون من سلاحهم ومنعوا من المشاركة، كما هو مثبت في تاريخ هذه الحرب، وقدد العرب الفلسطينيون نتيجة هذه الحرب المعلنة سنة ١٩٤٨م ٥٢٥ قرية وعشيرة في مدة لا تتجاوز أشهراً..

ل - وبعد سنة ١٩٦٧م، استولى اليهود على بقية فلسطين، ولكن أهل القرى لم يغادروها، وبقي كل واحد في أرضه وبيته، يكافح ويناضل ويشبث أمام قوة إسرائيل المدعمة بالسلاح الفتاك، وصبر الناس على التعذيب، والجوع والإرهاب ومن كان خارج فلسطين - سنة ١٩٦٧م - وحرم من العودة إلى أهله وبيته، يحاول كل واحد منهم الرجوع إلى بيته عن طريق ما يسمى «جمع الشمل» ويدفع بعضهم عشرات الآلاف من الدنانير رشوة للصهيونيين كي يحصل على «جمع الشمل» مع أن بيته الذي سيرجع إليه لا يساوي هذا المبلغ الذي سيدفعه، ولكن حبه لوطنه وأرضه يدفعه إلى شراء بيته، لأنه يدفع ثمن الولاء والحب والانتما، بل إن عشرات من الناس يرسلون آلاف الدنانير إلى ذويهم لينبوا لهم بيتاً ويحرقون أرضاً، مع أنهم محرومون من الإقامة الدائمة وقد يسمح لهم بالزيارة، وقد يحرمون منها...

وبعد : فتلک هي قصة الأرض الفلسطينية . تثبت ملكية العرب الفلسطينيين لها منذ القدم . وتثبت بطلان دعوى الصهيونيين . كما تثبت تمسك العرب الفلسطينيين بأرضهم وعدم تقريظهم في شبر منها . وقد بنيت هذه القصة على ما ثبت من التواريخ والوثائق . ولم أعتد على العاطفة والوهم .. أرسل هذه القصة إلى المثقفين العرب الذين تاهوا في بحر أضاليل الأعداء . وصدقوا أو كادوا هذه الأضاليل . حتى جرت على أقلام وألسنة بعضهم .. هدايا إلى سواء السبيل .

● مصادر البحث ●

- ١ - في الفقرات ١ ، ٢ ، ٣ . أثبت بعض المصادر في الحواشي . وفي خلال الكلام وأهم مصادر هذه الفقرات :
 - أ - القرآن الكريم . وانظر تفسير ابن كثير .
 - ب - الآية الكبرى في قصة الإسراء « لجلال الدين السيوطي » .
 - ج - معجم البلدان ، لياقوت الحموي .
 - د - تاريخ فلسطين القديم - ظفر الإسلام خان .
 - هـ - تاريخ فلسطين القديم - عبد الحكيم ذا النون .
 - و - بلادنا فلسطين ج ١ / مصطفى مراد الدباغ .
 - ز - القبائل العربية وسلطانها في فلسطين : أربعة مجلدات - لمصطفى مراد الدباغ .
 - ح - الموسوعة الفلسطينية : في عدد من المواضع حسب حروف الهجاء .
 - ط - خطط الشام ج ١ لمحمد كرد علي .
- ٢ - وأما الفقرات ٤ ، ٥ ، ٦ .. فأهم مصادرها :
 - أ - النكبة ، لعارف العارف - خمسة أجزاء في ثلاثة مجلدات .
 - ب - القضية الفلسطينية : محمد عزة دروزة . ج ١ .
 - ج - تاريخ فلسطين الحديث : للدكتور عبد الوهاب الكيالي .
 - د - الموسوعة الفلسطينية في مواقع متفرقة .
 - هـ - فلسطين أولاً : لو كاس نحرو للنبوغ - ترجمة المركز الجغرافي الفلسطيني .
 - و - إني أنتم .. تأليف روجيه ديلاورم ترجمة نخلة كلراس .
 - ز - وللإطلاع على تاريخ ثورة لم تنطفئ .. وجهاد لم ينقطع . انظر « يوميات أكرم زعيتر عن ثورة فلسطين » من ١٩٣٥م - ١٩٣٩م .